مجـرّد واقعـة ليس لها أبعاد تاريخية. وفي هذه المقالة، سنتناول ثلاث وقائع، ونبيّن كيف يتناولها الصهيونيون؟ وكيف يفرضون الدلالة عليها؟ وسنقوم، بعد ذلك، بربط هذه الوقائع، ذاتها، بوقائع أخـرى (استبعدها الصهيونيون) وبسياقها التاريخي والانساني، حتى تكتسب معناها التاريخي الانساني الأعمق الذي يحرص الصهيونيون على حجبه.

الوقائع الثلاث

أولى الوقائع هو ما يسمّى بـ «تهمة الدم» أي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً في عيد الفصح، سخرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظراً الى ان عيد الفصح المسيحي واليهودي قريبان، فقـد تطوّرت التهمـة وأصبـح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في طقوسهم الدينية وأعيادهم، وخصوصاً في عيد الفصح اليهودي الذي أُشيع ان خبز الفطير غير المخمّر (الماتزوت) الذي يؤكل فيه يعجن بدماء الضحية.

وتمتد جذور «تهمة الدم» الى عصر الاغريق، والرومان، أي الى ما قبل العصور المسيحية. فقد أتى في كتـابات آبيون الهيليني (السكندري) وديمقريطس الروماني اشارة الى ان اليهود يقدّمون ضحايا بشرية الى آلهتهم. ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من صورة اليهود الذهنية، ولم توجّه هذه التهمة اليهم بشكل متكرر، الاّ في القرون الوسطى في العالم الغربي.

وقد وجّهت أول تهمة دم في القرن الثاني عشر في انكلترا (في وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجـاري والمالي، ممّا كان يعني ان هناك افراداً كثيرين اقترضوا اموالاً من المرابي اليهودي، ولم ينجحوا في تسديدها، وآلت ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم الى المرابي)، وذلك حين اتهم اليهود بأنهم ذبحوا طفلاً عمره أربعة أعوام ونصف العام، يدعى وليام، في الجمعة الحزينة في العام ١١٤٤. وقد قال أحد اليهود المتنصّرين ان هذا هو عيد الفصح الذي تقوم فيه احدى الجماعات اليهودية، في احدى مدن اوروبا، بذبح طفل مسيحي (وقد نُصّب وليام قديساً فيما بعد). ثمّ وجّهت تهمة دم أخرى في مناطق مختلفة في انكلترا، بين العامين ١١٦٨ و١١٩٢. وقد انتشرت التهمة الى فرنسا، فوجّهت التهمة في بلوا، في العام ١١٧١. كما وجّهت التهمة الى اليهود خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيو من لنكولن (١٢٥٥) التي يذكرها تشوسر في حكايات كانتربري. وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها حادثة دمشق (١٨٤٠) وقضية بيليس في العام ١٩١٣. وتعد حادثة دمشق استثناء في انها حدثت في العالم الاسلامي؛ اذ انها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم المسيحي. وكانت تهمة الدم تأخذ الشكل التالي: يختفي شخص مسيحي (في العـادة طفـل) أو يوجد ميتاً، فيتذكر احد الاشخاص ان هذا الطفل شوهد آخر مرّة بجوار الحي اليهودي او ان هناك عيداً يهودياً ما (تتطلب شعائره دم نصراني) فيوجّه الى اليهود تهمة قتله ويتمّ القبض على بعض اعضاء الجماعة اليهودية، ويتمّ تعذيبهم ثمّ شنق بعضهم.

امّا الواقعة الثانية، فهي حادثة دريفوس الشهيرة، وبطلها هو الفريد دريفوس الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين وكان اليهودي الوحيد في هيئة اركان الجيش الفرنسي. وقد ولد دريفوس في الألزاس لأسرة يهودية ثريّة مندمجة في محيطها الفرنسي. ونظراً الى ان اسمه كان مولهاوزن، وهو اسم ألماني النكهة، فقد غيّره الى اسمه الفرنسي الذي اشتهر به. وقد اتهم دريفوس بأنه أعطى وثائق سرية عسكرية للملحق العسكري الالماني في باريس، فوجّهت اليه تهمة الخيانة العظمى والتجسّس لحساب ألمانيا في العـام ١٨٩٤. وقـد قامت السلطات العسكـريـة بمحـاكمتـه. وتـابعت الصحافة المعادية لليهود